

مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ  
تَصِيرَ الْأُمُورُ ﴿٥٧﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتبارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» . وقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كناحاً» كذا جاء في الحديث ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم . وقوله عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ أي وشرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ربها ومالكها والمتصرف فيها والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

## سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّمٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّمَا فِي أُولَئِكَ الْكُتُبِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُتْسِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأُولَىٰ ﴿٦﴾ وَمَا يَلِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مِثْلَ الْأُولَىٰ ﴿٨﴾

يقول تعالى : ﴿حَمِّمٌ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي الين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي افصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال عز وجل ﴿بَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه اهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿لَدِينَا﴾ أي عندنا ، قاله قتادة وغيره ﴿لَعَلِّي﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل قاله قتادة ﴿حَكِيمٌ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيف . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ في كتاب مكنون \* لا يمسه إلا المطهرون \* تنزيل من رب العالمين ﴿وقال تعالى :

﴿كلا إنها تذكرة﴾ فمن شاء ذكره ﴿ في صحف مكرمة ﴾ مرفوعة مطهرة ﴿ بأيدي سفرة ﴾ كرام بررة ﴿ ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالآكرام والتعظيم ، والالتقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وإته في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ .

وقوله عز وجل ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم مرفسين ﴾ ؟ اختلف المفسرون في معناها ، فقيل معناها المحسبون ان نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وأبو الصالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ ؟ والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة هللكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ماشاء الله من ذلك ، وقول قتادة لطيف المعنى جداً ، وحاصله انه يقول في معناه انه تعالى من لطفه ورحمته بخلفه لا يترك دعاهم الى الخير والى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مرفسين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقارته .

ثم قال جل وعلا مسلماً لنبية ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمرأ له بالصبر عليهم ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ أي في شيع الأولين ﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد ، كقوله عز وجل ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً . وقوله جل جلاله ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ قال مجاهد : ستهم . وقال قتادة : عقوبتهم . وقال غيرهما : عبرتهم ، أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيهم ما أصابهم ، كقوله تعالى في آخر هذه السورة ﴿ نجعلناهم سفلاً ومثلاً للآخرين ﴾ وكقوله جل جلاله ﴿ ولئن تجدد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا

كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ

لُعَنَ ذُكُرًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ رَيْبُكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا

لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد ، ثم قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدياً ﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة تسرون عليها وتقومون وتنامون وتصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد الى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، ﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فأنشرنا به بلدة ميتة ﴾ أي أرضاً ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى باحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال ﴿ كذلك نخروجون ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ذللها لكم وسخرها وسرها لاكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ أي

لتستويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴿١٥﴾ أي مقربين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد : مقرنين ، أي مطيقين ، ﴿ وإنا إلى ربنا لمقلبون ﴾ أي لصائرون إليه بعد عمانتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الآخروي في قوله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ وباللباس الدنيوي على الآخروي في قوله تعالى : ﴿ وريثاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

#### ذكر الاحاديث الواردة عند ركب الدابة

[حديث امير المؤمنين علي بن أبي طالب] رضي الله عنه . قال الإمام : حدثنا يزيد ، حدثنا شريك بن عبد الله عن أبي إسحاق ، عن علي بن ربيعة قال : رأيت علياً رضي الله عنه أتى بدابة ، فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ﴿ وإنا إلى ربنا لمقلبون ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وثلاثين ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ثم ضحك ، فقلت له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ ﴿ يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال رب اغفر لي ، ويقول علم عبدي انه لا يغفر الذنوب غيري ﴾ وهكذا رواه ابو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي الأحوص ، زاد النسائي ومنصور عن ابي إسحاق السبيعي عن علي بن ربيعة الأسدي الوالي به . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقد قال عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة : قلت لأبي إسحاق السبيعي : ممن سمعت هذا الحديث ؟ قال : من يونس بن خباب ؛ فلقيت يونس بن خباب فقلت : ممن سمعته ؟ فقال : من رجل سمعه من علي بن ربيعة ، ورواه بعضهم عن يونس بن خباب عن شقيق بن عقبة الأسدي عن علي ابن ربيعة الوالي به .

[حديث عبد الله بن عباس] رضي الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة «حدثنا أبو بكر بن عبد الله عن علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن رسول الله ﷺ أُرِدَّه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً وحمد ثلاثاً وسبح ثلاثاً ، وهلل واحدة ، ثم استلقى عليه وضحك ، ثم أقبل عليه فقال « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ، إلا أقبل الله عز وجل عليه ، فضحك اليه كما ضحكت اليك » تفرد به أحمد .

[حديث عبد الله بن عمر] رضي الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن علي بن عبد الله البارقني عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم يقول - اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطولنا البعيد ، اللهم انت صاحب السفر والخليفة في الأهل . اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا . وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « أيون تائبون ان شاء الله عابدون لربنا حامدون » وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج ، والترمذي من حديث حماد بن سلمة ، كلاهما عن أبي الزبير به .

[حديث آخر] قال الامام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن عمرو بن الحكم بن ثوبان عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول الله ما نرى أن نحملنا هذه ، فقال ﷺ « ما من بعير الا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كم أمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله عز وجل » أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف .

[حديث آخر] في معناه - قال أحمد : حدثنا عتاب ، أخبرنا عبد الله ، وعلي بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك ، أخبرنا اسامة بن زيد ، أخبرني محمد بن حمزة انه سمع أباة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « على ظهر كل بعير شيطان فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل ثم لا تقصروا عن حاجاتكم » .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمَّا تَدْعُمَا يَخْتَفِي بَنَاتٍ وَاصْفَتَكُم

بِالْبَيْتِ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُعِثَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يُنْتَوَىٰ فِي



مُتَّقِدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ قُلْ أُولُو جُنْحِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتَهُ كَقَالُوا إِنَّمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾ أي من قبل شركهم ﴿فهم به مستمسكون﴾ أي فيها هم فيه أي ليس الأمر كذلك، كقوله عز وجل ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ أي لم يكن ذلك . ثم قال تعالى : ﴿بل قالوا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي ليس لهم مستند فيها هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا . وفي قوله تبارك وتعالى ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ وقولهم ﴿وانا على آثارهم﴾ أي وراءهم ﴿مهتدون﴾ دعوى منهم بلا دليل . ثم بين جل وعلا ان مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل ، تشابه قولهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ وهكذا قال ههنا ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾ ثم قال عز وجل ﴿قل﴾ أي يا محمد هؤلاء المشركين ﴿أولولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جنتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحن وأهله . قال الله تعالى : ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فانظر كيف كان عقاب المكذبين﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمهٖ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنِّى سَمِيعٌ

﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾

وَمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ

يَتَسْمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ نَسَمُنَا بَيْنَهُمْ مَّيْمَنَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ

بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ مِمَّا يَجْحَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِئُوتِيَهُمُ سُقُفًا مِّنَ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِئُوتِيَهُمُ أَنْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزَخْرَفَ الَّذِينَ

كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليته إمام الخفاء والوالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها انه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال ﴿إني براء مما تعبدون﴾ \* إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين \* وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴿أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقاتدة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها ، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام ، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة ، ثم قال جل وعلا ﴿بل تمتع هؤلاء﴾ يعني المشركين ﴿وآباءهم﴾ أي فتناول عليهم العمر في ضلالتهم ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ أي بين الرسالة والنذارة ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ أي كابرو؛ وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبعياً ﴿وقالوا﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي هل كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من

القريتين؟ يعنون مكة والطائف، قاله ابن عباس رضي الله عنها وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقناة والسدي وابن زيد، وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد: يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي وعنه أيضاً أنهم يعنون عتبة بن ربيعة. وعن ابن عباس رضي الله عنها: جباراً من جبابرة قريش، وعنه رضي الله عنها أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدي: عنوا بذلك الوليد ابن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض ﴿أهم يقصمون رحمة ربك؟﴾ أي ليس الأمر مردوداً إليهم. بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أذكى الخلق قلباً ونفساً. وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ الآية. وقوله جلت عظمتهم ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ قيل معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا؛ قاله السدي وغيره. وقال قناة واضحاك ليملك بعضهم بعضاً وهو راجع إلى الأولى. ثم قال عز وجل ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي رحمة الله يخلقهم خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي لو لا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقناة والسدي وغيرهم ﴿جعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي سلام ودرجاً من فضة قاله ابن عباس ومجاهد وقناة والسدي وابن زيد وغيرهم ﴿عليها يظهرون﴾ أي يصعدون وليوهم أبواباً أي أغلاقاً على أبوابهم ﴿وسرراً عليها يتكئون﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿وزخرفاً﴾ أي ذهباً؛ قاله ابن عباس وقناة والسدي وابن زيد.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحفيرة عند الله تعالى، أي يجعل لهم بحسانهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشرب ليرواها الآخرة، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها كما ورد به الحديث الصحيح. وورد في حديث آخر «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» أسنده البيهقي من رواية زكريا بن منظور عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ فذكره. ورواه الطبراني من طريق زعمة بن صالح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً» ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نساته فرأه على رمال حصر قد أثر بجنه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله هذا كسرى وقصر فيها هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال «أوفي شاك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ «أولئك قوم عجلت لهم طبيعتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحفارتها، كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً» قال الترمذي: حسن صحيح.

وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصَ لَهُ سَيْطَانًا هُوَ لَهُ فَرِينٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَبَصَدٌ وَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَدُونَ ﴿٢٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَأُ الْقَرِينُ ﴿٢٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَيْوَمَ

إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَكْرَفُونَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَتَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

فَأَمَّا نَدَّبَهُ بِكَ فَيَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ مَنْقُمُونَ ﴿٣١﴾ أَوْ يَرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَأَنَّا عَلِيمٌ مُتَقَدِّرُونَ ﴿٣٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ

إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يُدْعَوْنَ ﴿٢١﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا  
أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : ﴿ومن يعش﴾ أي يتعاسى ويتغافل ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد هنا عشا البصيرة ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ كقوله تعالى : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ الآية ، وكقوله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وكقوله جل جلاله ﴿وقيضنا لهم قرناً فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ الآية ، ولهذا قال تبارك وتعالى هنا ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويمسبون أنهم مهتدون﴾ حتى إذا جاءنا ﴿أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الحجيم . فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به﴾ قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴿وقرأ بعضهم﴾ حتى إذا جاءنا ﴿يعني القرين والمقارن . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن سعيد الجريري قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة شفّع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار ، فذلك حين يقول﴾ ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴿ والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل ها هنا تغييباً كما يقال : القمران والعمران والأبوان ؛ قاله ابن جرير وغيره .

ثم قال تعالى : ﴿ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي لا ينبغي عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمته ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ثم قال تعالى : ﴿فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته نواصيهم ! هذا معنى قول السدي واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا أبو ثور عن معمر قال : تلا قتادة ﴿فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون﴾ فقال : ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة ، ولم ير الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى ، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ . قال : وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده فما رثي سحاًكاً منبسطاً حتى قبضه الله عز وجل ، وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة نحوه ، ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً ، وفي الحديث «النجوم أمانة للنساء فإذا ذهبت النجوم أتت النساء ما توعد ، وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهبت أت أصحابي ما يوعدون» ثم قال عز وجل ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ قيل معناه لشرف لك ولقومك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقاتدة والسدي وابن زيد ، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه وأورده الترمذي هنا حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن هذا الأمر في قریش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخاري ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلف من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم ، وقيل معنا ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ أي لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ، كقوله تعالى : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿وانذر عشيرتک الأقرین﴾ ﴿وسوف تسألون﴾ أي عن هذا القرآن ، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آفة يعبدون﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد ، كقوله جلت عظمته ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود رضي الله عنه . وهذا كأنه تفسير

لا تلاوة ، والله اعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : واسلم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له ، واختار ابن جرير الاول ، والله أعلم .

وَالْمُذَرِّجِينَ مُوسَىٰ يَأْتِيَنِي إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَفْتَعِكُونَ ﴿١٧٢﴾ وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٣﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاحِ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عٰهَدْتَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٧٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعاب من القبط وبنو اسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وانه بعث معه آيات عظاما كيدته وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع ، والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخباياهم وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم ﴿يا أيها الساحر﴾ أي العالم ، قاله ابن جرير . وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني اسرائيل وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه ، وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولترسلن معك بني اسرائيل ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالقوه اذا هم ينكثون﴾ .

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي فَلَا تَبْصُرُونَ ﴿١٧٦﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿١٧٧﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْجَاءَ

مَعَ الْمَلِكِ مُقْتَرِنِينَ ﴿١٧٨﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٧٩﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده ، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعني موسى واتباعه فقراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى : ﴿فحشر فنادى﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿ فأخذته الله نكال الآخرة والاولى﴾ .

وقوله ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين ، وهكذا قال بعض نحاة البصرة : ان أم ههنا بمعنى بل ، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء انه قرأها ﴿أما أنا من هذا الذي هو مهين﴾ قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً ، ولكنها خلاف قراءة الأمصار فانهم قرأوا ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ على الاستفهام [قلت] وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك انه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً ، واضحاً فعليه لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان حفيظ ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ولا يكاد يبين﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عمي حصر . قال السدي ﴿لا يكاد يبين﴾ أي لا يكاد يفهم .

وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عبي اللسان ، وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ما ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهز ابصار ذوي الألباب .

وقوله ﴿مُهَيَّن﴾ كذب ، بل هو المهين الحقيير خلقه وخلقا وديناً ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد .  
وقوله ﴿ولا يكاد يبين﴾ افتراء ايضاً فإنه وإن كان قد اصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله عز وجل أن يجعل عقدة من لسانه ليقيها قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل ازالته ، كما قاله الحسن البصري وإنما سأل زوال ما يحصل معه الاطلاع والافهام ، فالاشياء الخلقية التي ليست من فعل اليد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما اراد الترويح على رعيته فانهم كانوا جهلة اغبياء وهكذا قوله ﴿فلولا التي عليه اسورة من ذهب﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الخلي . قال ابن عباس رضي الله عنهما وفتادة وغير واحد ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ أي يكفونهم خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر اليه لو كان يفهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم الى الضلالة فاستجابوا له ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ قال الله تعالى : ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أسفونا اسخطونا ، وقال الضحاك عنه : اغضبونا ، وهكذا قال ابن عباس ايضاً ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمر بن كعب القرظي وفتادة والسدي وغيرهم من المفسرين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبيد الله بن أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ، حدثنا ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم اتحبيي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له» ثم تلا ﷻ ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ، حدثنا قيس بن الربيع بن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله رضي الله عنه ، فذكر عنده موت الصجأة ، فقال : تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ، ثم قرأ رضي الله عنه ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : وجدت النعمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى : ﴿فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ قال ابو مجلز : سلفاً لمثل من عمل بعملهم . وقال هو ومجاهد : ومثلاً أي عبرة لمن بعدهم ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب .

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آءِ إِلَهْتُنَا

خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِجْدَالًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِطَّةً فِي الْأَرْضِ تَخَلَّفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَئِنَّمْ لِلسَّاعَةِ فَلَانْتَمُرْتَ بِهَا وَأَنْتُمْ عَمُونَ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ

وَلَا بَيْنَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنْ اللَّهُ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك : يضحكون اي اعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يجزعون ويضحكون . وقال ابراهيم النخعي : يعرضون ، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن

اسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ ، فيها بلغني ، يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى افحمه ، ثم تلا عليه ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون﴾ الآيات .

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير التيمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد انا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله الزبيري : اما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فتحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري ، ورأوا انه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «كل من أحب ان يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فانهم انما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» أنزل الله عز وجل : ﴿إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون﴾ أي عيسى وعزير ومن عبد معها من الاحبار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذهم من بعدهم من اهل الضلالة ارباباً من دون الله ، ونزل فيها يذكر من انهم يعبدون الملائكة وانهم بنات الله ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ الآيات ونزل فيها يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وانه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجة وخصومته ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون﴾ أي يصدون امرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿إن هو إلا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلاً لابي اسرائيل \* ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون \* وانه لعلم للساعة﴾ أي ما وضع على يديه من الآيات من احياء الموتى وبراء الاسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول ﴿فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ .

وذكر ابن جرير من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ قال : يعني قريشا ، لما قيل لهم : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون﴾ إلى آخر الآيات . فقالت له قريش : فما ابن مريم ؟ قال «ذاك عبد الله ورسوله» فقالوا : والله ما يريد هذا إلا أن تتخذة رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً ، فقال الله عز وجل ﴿ماضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ .

وقال الامام احمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا شيبان عن عاصم بن ابي النجود ، عن ابي رزين ، عن ابي يحيى مولى ابن عقيل الانصاري ، قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد علمت اية من القرآن ماسألني عنها رجل قط . ولا ادري اعلمها الناس فلم يسألوا عنها ام لم يفتنوا لها فيسألوا عنها . قال : ثم طفق يحدثنا ، فلما قام تلاوتنا ان لانكون سألناه عنها ، فقلت : انا لها اذا راح غداً ، فلما راح الغد قلت : يا ابن عباس ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط ، فلا تدري اعلمها الناس ام لم يفتنوا لها ، فقلت : اخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها . قال رضي الله عنه : نعم ان رسول الله ﷺ قال لقريش «يامعشر قريش انه ليس احد يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش ان النصارى تعبد عيسى ابن مريم عليها الصلاة والسلام ، وما تقول في محمد ﷺ ، فقالوا : يا محمد الست تزعم ان عيسى عليه الصلاة والسلام كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً ، فان كنت صادقاً كان آهنتهم كما تقولون . قال : فانزل الله عز وجل ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون﴾ قلت : ما يصدون ؟ قال : يضحكون ﴿وانه لعلم للساعة﴾ قال : هو خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة . وقال ابن ابي حاتم : حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي ، حدثنا آدم ، حدثنا شيبان عن عاصم بن ابي النجود عن ابي احمد مولى الانصار عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ «يامعشر قريش انه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له : الست تزعم ان عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله ؟ فانزل الله عز وجل ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً اذا قومك منه يصدون﴾ قالت قريش انما يريد محمد ان نبيده كما عبد قوم عيسى عليه السلام . ونحو هذا قال قتادة وقوله ﴿وقالوا آلهتنا خير أم هو﴾ قال قتادة : يقولون آلهتنا خير منه وقال قتادة : قرأ ابن مسعود رضي الله عنه وقالوا آلهتنا خير أم هذا ، يعنون محمداً ﷺ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ماضربوه لك الا جدلاً﴾ أي مراء ، وهم يعلمون انه بوارد على الآية ، لأنها لما لا يعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ثم هي خطاب لقريش ، وهم انما كانوا يعبدون الاصنام والانداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين ان مقاتلهم انما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها وقد قال الامام احمد رحمه الله تعالى : حدثنا ابن غير ، حدثنا حجاج بن دينار عن ابي غالب عن ابي امامة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون» وقد رواه الترمذي وابن ماجه وابن جرير من حديث حجاج بن دينار به ثم قال الترمذي : حسن صحيح لانعرفه الا من حديثه كذا قال وقد روي من وجه آخر عن ابي امامة رضي الله عنه بزيادة ، فقال ابن ابي حاتم : حدثنا حميد بن عياش الرملي ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد ، اخبرنا ابن مخزوم عن القاسم بن ابي عبد الرحمن السامي عن ابي امامة رضي الله عنه ، قال حماد : لادري رفعه أم لا ؟ قال : ما ضلت أمة بعد نبيها الا كان اول ضلالها التكذيب بالقدر ، وما ضلت أمة بعد نبيها الا اعطوا الجدل ، ثم قرأ «ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون» .

وقال ابن جرير ايضاً : حدثنا ابو كريب ، حدثنا احمد بن عبد الرحمن عن عباد بن عباد عن جعفر عن القاسم عن ابي امامة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن ، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخلل ، ثم قال ﷺ «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فانه ما ضل قوم قط الا اوتوا الجدل» ثم تلا ﷺ «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون» وقوله تعالى «إن هو الا عبد انعمنا عليه» يعني عيسى عليه الصلاة والسلام . ما هو الا عبد من عباد الله عز وجل انعم الله عليه بالنبوة والرسالة . «وجعلناه مثلاً لبي اسرائيل» أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء ، وقوله عز وجل «ولو نشاء لجعلنا منكم» أي بدلکم «ملائكة في الارض يخلفون» قال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنها وقناة : يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضهم بعضاً ، وهذا القول يستلزم الاول ، قال مجاهد : يعمرن الارض بدلکم .

وقوله سبحانه وتعالى : «وإنه لعلم للساعة» تقدم تفسير ابن اسحاق ان المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام ، من احياء الموتى وبراء الاكمة والابرص وغير ذلك من الاسقام ، وفي هذا نظر وابعده منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبیر ، ان الضمير في وانه عائد على القرآن ، بل الصحيح انه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فان السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى : «وإن من اهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام «ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً» ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى «وإنه لعلم للساعة» أي اشارة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد «وإنه لعلم للساعة» أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن ابي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقناة والضحاك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ انه اخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً .

وقوله تعالى : «فلا تترن بها» أي لا تشكروا فيها انها واقعة وكائنه لا محالة «واتبعون» أي فيما اخبركم به «هذا صراط مستقيم» ولا يصدنكم الشيطان» أي عن اتباع الحق «انه لكم عدو مبين» ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة أي بالنبوة «ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه» قال ابن جرير يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية ، وهذا الذي فانه حسن جيد ثم ورد قول من زعم ان بعض ههنا بمعنى كل ، واستشهد بقول لبيد الشاعر حيث قال :  
نزال امكنة إذا لم ارضها  
او يعلق بعض النفوس حمامها  
ولوه على انه اراد جميع النفوس . قال ابن جرير انما اراد نفسه فقط ، وعبر بالبعض عنها ، وهذا الذي فانه محتمل .  
وقوله عز وجل «فأتقوا الله» أي فيما أمركم به «وأطيعوا» فيما جئتكم به «ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» أي أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له «هذا صراط مستقيم» أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله سبحانه وتعالى : «فاختلف الأحزاب من بينهم» أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ومنهم من يدعي انه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تعالى : «فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم» .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾ يَتَعَبَّدُونَ لِمَا هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا  
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٤﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٦٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ

وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَسْرَفِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تحييهم وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم ، وقوله تعالى : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ أي كل صداقة وصحبة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه ، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ .

وقال عبد الرزاق : اخبرنا اسراييل عن أبي اسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ قال : خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال : اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أي ملائكتك ، اللهم فلا تضله بعدي حتى تريبه مثل ما أربتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له اذهب فلو تعلم ماله عندي لضحكتم كثيراً وبكيت قليلاً قال ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : ليشن أحدهما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ وبعم الصحاب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أي غير ملائكتك . اللهم فلا تنده بعدي حتى تريبه مثل ما أربتني وتسخط عليه كما سخطت علي . قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليشن كل واحد منهما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بشن الأخ وبشن الصحاب وبشن الخليل ! رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقناة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين ، وروى الحافظ ابن عساکر في ترجمة هشام بن أحمد عن هشام بن عبد الله بن كثير ، حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة عن معاني ، حدثنا حكيم بن نافع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي أحببته في» .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ ثم بشرهم فقال ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا أفرغ فينادي مناد ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيبعثها ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال : فيياس الناس منها غير المؤمنين . ﴿ادخلوا الجنة﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أنتم وازواجكم﴾ أي نظراؤكم ﴿تغربون﴾ أي تتعمون وتسعدون وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم . ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ أي زيادي آنية الطعام ﴿وأكواب﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وفيها ما تشتهي الأنفس﴾ وقرأ بعضهم تشتهيه الأنفس ﴿وتلذذ الأعين﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر ، قال عبد الرزاق : اخبرنا معمر ، اخبرني اسماعيل بن أبي سعيد قال : إن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنها أخبره أن رسول الله ﷺ قال «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد ، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحيفة من ذهب ، ليس فيها صحيفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله ، شهوته في آخرها كشهوته في أولها ، ولو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك عما أوتى شيئاً» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا عمرو بن سواد السرحي ، حدثني عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة عن عجيل بن خالد عن الحسن بن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر الجنة فقال «والذي نفس محمد بيده ، لياخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ، ثم يحظر على باله طعام آخر فينحول الطعام الذي في فيه على الذي اشتهى» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن هو ابن موسى حدثنا مسكين بن عبد العزيز ، حدثنا أبو الأشعث الضريير عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن أدنى أهل الجنة منزلة من له لسبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلاثمائة خادم ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحيفة - ولا أعلمه إلا قال من ذهب

في كل صحيفة لون ليس في الاخرى ، وانه ليلذ اوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلثائة إناء في كل اناء لون ليس في الآخر ، وانه ليلذ اوله كما يلذ آخره ، وانه ليقول يارب لو اذنت لي لأطعمت اهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندي شيء ، وان له من الخور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى ازواجه من الدنيا ، وان الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الارض، وقوله تعالى : ﴿وَأنتم فيها﴾ أي في الجنة ﴿خالدون﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا . ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم ، فانه لا يدخل احداً عمله الجنة ، ولكن برحمة الله وفضله ، وانما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الاعمال الصالحات قال ابن أبي حاتم : حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ ، حدثنا يوسف بن يعقوب يعني الصفار ، حدثنا ابو بكر بن عياش عن الأعمش عن ابي صالح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «كل اهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له فيقول ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ وكل اهل الجنة يرى منزله من النار فيقول ﴿وما كنا لتتهذي لولا أن هدانا الله﴾ فيكون له شكراً قال : وقال رسول الله ﷺ ما من احد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة . وذلك قوله تعالى : ﴿وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون﴾ « وقوله تعالى : ﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ أي من جميع الأنواع ﴿منها تأكلون﴾ أي منها اخترتم وادرتهم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة ، والله تعالى اعلم .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَغْتَرَّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾  
وَأَدَاؤُكُمْ لِيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رُبَّكَ قَالَ أَتَقْرَأُ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الَّذِي تُكْفَرُونَ ﴿٧٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ أَرْمُوا أَمْرًا  
فَأَنَّا مَبْرُومُونَ ﴿٨١﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ أُرْسِلْنَا لَدَيْهِمْ بِكُتُوبٍ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون \* لا يفتقر عنهم﴾ أي ساعة واحدة ﴿وهم فيه مبسون﴾ أي آيسون من كل خير . ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي باعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم . وارسال الرسل اليهم ، فكذبوا وعصوا فجزوا بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد . ﴿ونادوا يامالك﴾ وهو خازن النار . قال البخاري : حدثنا حجاج بن منهال حدثنا سفيان بن عيينة عن عمر بن عطاء عن صفوان بن يعلى عن ابيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ونادوا يامالك ليقتض علينا ربك﴾ أي يقبض ارواحنا فربحنا مما نحن فيه فانهم كما قال تعالى : ﴿لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ وقال عز وجل ﴿وبتجنبها الأشقى \* الذي يصل النار الكبرى \* ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ فلما سألتوا ان يموتوا اجابهم مالك ﴿قال إنكم ماكثون﴾ قال ابن عباس : مكث الف سنة ثم قال : انكم ماكثون رواه ابن ابي حاتم أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب شقتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ولكن اكثركم للحق كارهون﴾ أي ولكن كانت سجايابكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وانما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتباه وتبغض اهله ، فعودوا على انفسكم باللاممة . واتدموا حيث لا تنفعكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿أم ابرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ قال مجاهد : ارادوا كيد شر ، فكذناهم وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى : ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال ﴿أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿بلى ورسلا لدبيهم يكتبون﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة ايضا يكتبون اعمالهم صغيرها وكبيرها .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ

عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٨٤﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُرُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يَلْتَفِتُوا يَوْمَئِذٍ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٥﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ

إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِن هَتُولَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي لو فرض هذا لعبده على ذلك ، لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممنوع في حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا كما قال عز وجل : ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الأنفين ، ومنهم سفيان الثوري والبخاري ، حكاه فقال ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد ، وذكر ابن جرير لهذا القول من الشاهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب ، حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قسيط عن بعجة بن بدر الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً ، فولدت له في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأمرها أن ترجم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وحمله وفضاله ثلاثون شهراً﴾ وقال عز وجل : ﴿وفضاله في عامين﴾ قال : فوالله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها ترد ، قال يونس : قال ابن وهب : عبد استكف . وقال الشاعر :

مئى مايشأ ذو السود يصرم خليله ويعبد عليه لاعمالة ظالما

وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره ان كان هذا فأنا ممنوع منه ؟ هذا فيه نظر فليتأمل الملهم إلا أن يقال : أن إن ليست شرطاً وإنما هي نافية ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ يقول : لم يكن للرحمن ولد ، فأنا أول الشاهدين . وقال قتادة هي كلمة من كلام العرب ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي ، وقال أبو صخر ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، وقال مجاهد ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي أول من عبده ووحده وكذبكم ، وقال البخاري ﴿فأنا أول العابدين﴾ الأنفين وهما لغتان رجل عابد وعبد . والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممنوع ، وقال السدي ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده بان له ولد ولكن لا ولد له ، وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم ان إن نافية . ولهذا قال تعالى : ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ أي تعالى وتقدس وتزه خالق الأشياء عن ان يكون له ولد فإنه فرد احد صمد ، لا نظير له ولا كفه له فلا ولد له .

وقوله تعالى : ﴿فذرهم يخوضوا﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ويلعبوا﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم وقوله تبارك وتعالى : ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده اهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿وهو الحكيم العليم﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما تكسبون﴾ أي هو المدعو الله في السموات والأرض ﴿وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي هو خالقهما ومالكهما ، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك ، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده ازمة الأمور نقضاً وإبراماً . ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو . ﴿وإليه ترجعون﴾ أي فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ثم قال تعالى : ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿الشفاعة﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ هذا استثناء منقطع . أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فانه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . ثم قال عز وجل : ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿من خلقهم ليقولن الله﴾ أي هم يعترفون انه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا

يعدون معه غيره من لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنْ يُوَفِّكُونَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي وقال محمد ﷺ ، قيله أي شكاً الى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما اخبر تعالى في الآية الاخرى ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد وقتادة ، وعليه فسر ابن جرير ، قال البخاري : وقرأ عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ وقال مجاهد في قوله ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال يؤثر الله عز وجل قول محمد ﷺ . وقال قتادة : هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه الى ربه عز وجل . ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ ﴾ قراءتين احدهما النصب ، ولها توجيهان : احدهما انه معطوف على قوله تبارك وتعالى : ﴿ نَسْمَعُ سُرْمًا وَنَجْوَاهُمْ ﴾ والثاني ان يقدر فعل وقال قيله ، والثانية الحذف وقيله عطفاً على قوله ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ وتقديره وعلم قيله . وقوله تعالى : ﴿ فَاصْفَعْ عَنْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا احل بهم بأسه الذي لا يرد وأعل دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله افواجا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب والله اعلم .

## سُورَةُ الدُّخَانِ

قال الترمذي : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب عن عمرو بن ابي خثعم عن يحيى بن ابي كثير ، عن ابي سلمة عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حم الدخان في ليلة اصبح يستغفر له سبعون الف ملك » ثم قال غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه ، وعمرو بن ابي خثعم يضعف قال البخاري منكر الحديث . ثم قال : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي ، حدثنا زيد بن الحباب عن هشام ابي المقدم عن الحسن عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له » ثم قال غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه ، وهشام ابو المقدم يضعف ، والحسن لم يسمع من ابي هريرة رضي الله عنه ، كذا قال ابوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد رحمة الله عليهم اجمعين ، وفي مسند البزار من رواية ابي الطفيل عامر بن واثلة عن زيد بن حارثة ان رسول الله ﷺ قال لابن صياد « اني قد خبات خباً فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان فقال هو الدخ . فقال « احسأ ما شاء الله » ثم انصرف .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝ ١ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۝ ٢ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ ٣ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ كَبِيرٍ ۝ ٤ ۝  
 أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ۝ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ ٥ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ٦ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝  
 ٧ ۝ إِنَّ كُنُوزَهُمْ مُوفًى ۝ ٨ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۝ ٨ ۝

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم انه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر كما قال عز وجل ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَشَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعده النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان ، والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري ،